الروح الوطني في جميع الأمم المستقلة ، فمن الاسف أنها انتهت في العصر الراحل إلى حالة يرثى لها ؛ وما زال التاريخ القومي يغمط حقه من جميع النواحي ، وما زلنا نتلقى عن تاريخ الامم والحضارات والشخصيات الأجنبية أضعاف ما نتلقى عن تاريخنا وتاريخ شخصياتنا وحضارتنا ، ولم يكن ذلك غريبا في عهد السيادة الأجنبية لأنها تعرف بخبرتها في طبائع الشعوب ومشاعرها أن الأمم ذات التواريخ الحافلة المجيدة ، تهتز في عصور الضعف والانحلال لذكرياتها القديمة ، وتستمد منها الوحي والقوة في مغالبة الخطوب وشحذ الشعور الوطني ؛ وقد كانت أساليب التربية القديمة ترمي إلى محاربة ذلك الشعور وإضعافه ، وكان التاريخ القومي من العناصر الثقافية التي قضى عليها بالمسخ والمحو تقريبا ؛ أما اليوم فان الاستقلال الوليد في أشد حاجة لأن نحيطه بسياج من تاريخنا القومي ، وان توطد دعائمه بما يبعثه إلى نفوسنا استعراض هذا التراث الحافل من اعتزاز وطموح إلى استئناف تاريخنا المجيد ، وربط مستقبلنا بماضينا ، وهذا عنصر في تغذية الشعور القومي تعرفه الامم المستقلة وتعنى به أشد عناية

وأخيراً يجب ألا ننسى ما للناحية الخلقية في تكوين الثقافة القومية من أهمية خاصة . ولسنا بحاجة لأن ندلل على أن المثل الأخلاقية الرفيعة يجب أن تكون غاية الغايات في كل ثقافة عظيمة ؛ فاذا كان الماضي قد طوى بسيئاته ومثالبه المعنوية فمن ألزم واجباتنا في العهد الجديد أن نعمل على إخراج جيل جديد يتمتع بالجرأة والصراحة واستقلال الرأي وسلامة التفكير والتقدير ؛ فهذه القوى المعنوية والأخلاقية ضرورية لحماية الاستقلال القومي ضرورة الجيوش ذاتها

والخلاصة أن ثقافتنا الجديدة يجب أن تكون وليدة ثورة حقيقية ، سواء في نظمها أو روحها أو مادتها ؛ يجب ألا تكون ثقافتنا المستقبلة كما كانت في الماضي ، معتركا لتنافس الثقافات والمؤثرات الأجنبية المختلفة ، بل يجب أن تكون ثقافة مصرية خالصة ، حرة من كل تيار غير مرغوب فيه ؛ ويجب أن تكون ثقافتنا غزيرة عميقة في نفس الوقت ، تأخذ بالتخصيص في جميع الدراسات والشؤون الجوهرية ، ولا تخلو مع ذلك من التعميم النافع ؛ وأخيراً يجب قبل كل شيء أن يتبوأ الطابع القومي مقامه الأول في صوغ ثقافتنا وفي توجيهها ؟

محمد عبد الله عنان

النحـــو

الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

النحو علم لا أعرف منه إلا اسمه . وما أكثر ما أجهل وأضأل ما أعرف ! ولو كنت وجدت من يعلمنيه لتعلمت وما قصرت . وكيف بالله تنتظر مني أن أعرفه بالفطرة والالهام . . . كان أول من قيل لنا إنه معلم نحو رجلا قاسياً سيء الطباع سريع البادرة ، وكانت له عصاً قصيرة من الخيزران يدسها في كمه ، حتى إذا أمن أن يراه الناظر أخرجها وسلطها على أجسامنا الصغيرة وأهوى بها على أيدينا وجنوبنا ورؤوسنا فلا يتركنا إلا بعد أن ينقطع نشيجنا وتخفت أصواتنا وتذهب عنا القدرة على الصراخ والاستنجاد ، فلم يكن أبغض إلينا من درسه . ومن المضحك أن ذلك لم يكن يخيفنا منه ولا يزيدنا إلا إلحاحاً في معابثته . وكنت أنا أثقل التلاميذ عليه وأبغضهم إليه ، لأني كنت - وأحسب أني ما زلت - شيئاً صغيراً جداً وخفيفاً مستدقاً لا أستقر في مكان ، ولا أزال أنط من هنا إلى هنا ولا يكف لساني عن الدوران . فكان نصيبي من هذه العلقات النصيب الأوفر وحظي هو الأجزل . وكان الناظر فيه سذاجة عجيبة لم تفتنا نحن الأطفال . وكيف كان يمكن أن يفوتنا التفطن إلى سذاجته ونحن مئات من الأطفال لنا مئات من العيون نفحصه بها ، ومئات أخرى من الآذان والرؤوس تسمعه وتتدبر أمره وتجسه وتختبره . . . فكنت أذهب إليه وأقول له على سبيل الملق والدهان : « يا سعادة البك » فيلتفت بوجهه الكبير إلي ويقبل علي بابتسامته البلهاء ، فقد كانت الرتبة جديدة وفرحه بها عظيما . ويسألني « مالك يا امن (بالميم فقد كان أخن) عبدالقادر » فأقول له : « ياسعادة البك . الشيخ فلان ياسعادة البك معه عصا يخفيها في كم القفطان ويضربنا بها ياسعادة البك » وكنت صادقاً ولكنه لم يكن يعرف أني صادق : غير أنه كان يسمع « سعادة البك » تصافح أذنه مرات عديدة في نصف دقيقة فيطرب ، ويصرفه الطرب عن التثبت فيقول لي - متآمراً معي - « طيب . رح انت إلى الفصل وعما كمه » اي والله كان يحرضني

على معاكسة الشيخ المسكين ليضبطه - كما يقال - متلبساً بالجريمة، أو كان يكتفي بأن يأمرني بالعودة إلى الفصل ثم يدخل هو ويفاجئ الشيخ بانتزاع العصا من كمه ويوبخه أمامنا وينصرف. فتصيح أربعون حنجرة جديدة «هيه» فيكاد الشيخ يجن وينهال علينا ضرباً باليدين والرجلين فتنكشف سراويلاته فيعلو الصياح من جديد، ولكنه يكون قد تعب وأضناه الجهد وبهر أنفاسه العدو وراءنا فيقف وهو ينهج ويخرج المنديل من جيب القفطان ويمسح به الغرق المتصبب ونحن جميعاً نتكلم وليس بيننا واحد يصغي إلى ما يقال

هذا كان أستاذنا في النحو. ولو أنه كان موفقاً في التعليم لكان الناظر وحده كفيلا بافساد الأمر عليه. فقد كان يتظاهر بالعلم بكل شيء وهو لا يعرف شيئاً. فاذا تورط ولم يسعه إلا الاعتراف بجهله قال: «جاهل جاهل. لكن إداري تمام» ومن ظريف ما أذكره من نوادره أنه دخل علينا في درس ترجمة وكان المعلم غائباً. ولم يكن هو يعرف ذلك وان كان فيما يزعم إدارياً حاذقاً. ولكنه سمع ضجتنا العالية فسأل فقيل له إن هذه الفرقة ليس فيها معلم، فلم يندب غيره بل جاء هو إلينا بنفسه وبطوله وعرضه وسألنا: «مالكم يا أولاد؟» قلنا «يا سعادة البك المعلم غائب» قال «الدرس إيه» قلنا «ترجمة يا سعادة البك» فانشرح صدره واغتبط وأيقن أنه سيظل يسمع منا مايسره فقال: «طيب وايه يعني؟» فقلنا «ياسعادة البك لم نفهم الدرس السابق ياسعادة البك» فسأل عن هذا الدرس السابق الذي استعصى علينا فقلنا له انه كان يحاول أن يعلمنا النفي في اللغتين العربية والانجليزية ولكننا لم نفهم عنه. فأعرب لنا بعبارات صريحة عن دهشته وتعجبه لوزارة المعارف التي تعين مدرسين لا يحسنون تفهيم التلاميذ، وأكد لنا أنه يعطف علينا لأننا نؤدي للوزارة أجور التعليم كاملة ولا نتعلم مع ذلك شيئاً. ثم قال ان المسألة بسيطة وأن النفي سهل جداً وأن أدواته في اللغة العربية معروفة وهي «لا ولم ولن الخ» والأمثلة سهلة ومعروفة، وشرع يسوق الأمثلة. فلما بلغ «لم» قال «مثلا.. لم كتب. لم ضرب. لم ذهب» فانفجرنا ضاحكين وكان لنا العذر. وكيف لا نضحك من «لم كتب ولم ضرب»

فلما سكنت العاصفة بعض السكون قال يوبخنا ويزجرنا ويعظنا: «تضحكون؟.. ابكون.. ابكون..» فلم يبق منا طفل على مقعده من شدة الضحك. ولم يسكتنا الخوف منه وإنما أسكتنا الألم الذي صرنا نحسه في بطوننا من الضحك الطويل

هذا في التعليم الابتدائي. أما في التعليم الثانوي فقد كان أول معلم لي فيه مصابا بالربو، فكان لا ينفك يسعل ويتفل حتى توجعنا بطوننا. ولهذا كنا نتام في درسه أو نهرب منه اتقاء لوجع البطن. ثم صار لنا معلم آخر وكان سياسيا ولكنه كان في هذا نسيج وحده، فكان يغلق النوافذ ليأمن أن يسمع أحد ما ينوي أن يقول - أعني ما ينوي أن يفضي إلينا به من الأسرار. ثم يشرع في الحديث فيصف لنا كيف كان الحكم المصري على عهد الخديو اسماعيل ظالما، فنجادله وينقضي الدرس كله في هذا الجدل العجيب. ولست أدري لماذا كان يحشم نفسه إغلاق النوافذ. ولو أن الناظر الانجليزي سمعه لكان حقيقا أن يسر لا أن يغضب، ولكني أحسبه كان يفعل ذلك ليكون تأثير كلامه في نفوسنا أبلغ. والعجب بعد ذلك أن تلاميذه كلهم صاروا وطنيين متطرفين في وطنيتهم لا خونة لبلادهم كما كان يشتهي هو أن يكونوا

فمن كنت أتعلم النحو بالله؟. وما الذي كان يمكن أن يغريني أن أتعلمه وحدي؟. ثم مافائدة هذا النحو الذي لم اتعلمه ولم احتج اليه.. وعسى من يسأل: «وكيف كنت تصنع في الامتحانات؟» فأقول إني كنت أقرأ ورقة الأسئلة وأترك النحو إلى آخر الوقت ثم أتناوله وأروح أجمع طائفة من الأمثلة أستخلص منها القاعدة فأجعل هذا جوابي. ولا شك أنه كان لا يخلو من نقص ولكنه لم يكن خطأ كله. هذه كانت طريقتي وقد استغنيت بها عن حفظ ما في كتب النحو. وأراني الآن أصبحت كاتبا - وقد كنت في زماني شاعرا كذلك - وقد وسعني هذا وذاك بغير معونة من النحو. بل من غير أن أتعلم العروض. وأذكر أني وأنا في مدرسة المعلمين العليا كان الشيخ حمزة فتح الله هو الذي يتولى امتحاننا في اللغة العربية - على الأقل في احدى السنين - وكان من أعضاء اللجنة التي هو رئيسها الشيخ عبد العزيز شاويش وفتح الله بركات بك واستاذنا في المدرسة؛ وكنا ندخل على اللجنة واحداً واحداً

كما هى العادة فأخبرنى الذين سبقونى إلى أداء الامتحان أن الشيخ حمزة عليه رحمة الله يفتح كتاب النحو والصرف ويأمر الطالب أن يسمعه الباب الفلانى ، وكانت هـذه مبالغة ولـكنا صدقناها ، فأيقنت أنى مخفق ووطنت نفسى على معركة . وجاء دورى فدخلت ، فناولنى مقدمة ابن خلدون وقال افتحها فى أى موضع واقرأ ، ففعلت ، فأمرنى أن أضع الكتاب وشرع يسألنى عن كلمة « العدوان » ما فعلها الثلاثى ولماذا يقال « اعتديا » ـ بفتح الدال للماضى ـ واعتديا » بكسرها للامر . فلم أعرف لهذا جوابا ، فقلت: « هكذا نطق العرب وعنهم أخذنا » . فألح فى طلب الجواب المرضى فقلت « إن اللغة نشأت قبل القواعد . وأنا أنطق وأكتب وأقرأ كما كان العرب يفعلون من غير أن يعرفوا قاعدة أو حكما » فساءه جوابى ونهرنى وخشى الشيخ شاويش العاقبة فقال له: « يا مولانا . العصر وجب » فنهض الشيخ حمزة لصلاة العصر وتركنى لزملائه فأسرعوا فى امتحانى قبل أن يفرغ الشيخ ويعود

وأحسب أن ما وسع العرب الأولين من معرفة العربية بلا نحو لا يعجز عنه أبناء هذا الزمان . ومن الميسور فيما أعتقد أن تحل قراءة الأدب العربى محل النحو . وليس يعجز رجال العربية عن وضع مختارات صالحة لكل سن . وإذا كان لابد من النحو فليكن ذلك عرضا وأثناء القراءة وعلى سبيل الشرح وللاستعانة به على الفهم ، وعلى ألا يكون ذلك درسا مستقلا يؤدى فيه امتحان . أما الطريقة التى يتعلم بها أبناؤنا العربية فانى أراها مقلوبة لانها تبدأ بما يجب الانتهاء اليه . ومن ذا الذى يتصور أن صبياً صغيراً يستطيع أن يفهم ما الفعل وما الاسم وما الحرف ، وأن هـذا يكون حكمه كيت وكيت وذاك يجرى عليه كذا وكذا من .. وان هذه الفتحات والضمات والكسرات علامات إعراب أو لا أدرى ماذا هى ، وأن لفظا يكون مسندا ولفظا آخر يكون مسندا اليه إلى آخر هذه الألغاز التى لا يعقل أن يدركها طفل صغير . بل إنى أنا الكبير أردت منذ بضعة أيام أن أراجع شيئا فى النحو ففتحت وقرأت فيه شيئا ثم وضعته يائسا من الفهم ولجأت إلى وسيلة أخرى كانت أجدى على من هذا الكلام الذى أراه يفهم ، وذلك أنى كتبت الوجهين اللذين حرت بينهما واختلط على الأمر فيهما فلم أعد أدرى أيهما الصواب وأيهما الخطأ ، ثم ذهبت أنظر اليهما فالذى سكنت اليه نفسى أخذت به وتبينت بعد ذلك أن ما أخذت به كان هو الصحيح وأن عينى لم تخدعنى وأن نفسى إنما اطمأنت إلى ما طال عهدها به من الصواب . أما ما لم تألفه أثناء مطالعاتى فقد رفضته . والطريقة التى أشير بها تجعل العربية سليقة على خلاف ما هو حاصل الآن فان أبناءنا يتعلمون العربية كما يتعلمون الانجليزية أو أية لغة أجنبية أخرى لا يشعرون بصلة بينها وبين نفوسهم . وكثيرا ما يتفق أن يخرج التلميذ وهو أعرف باللغة الأجنبية منه بالعربية . وليس بعد هذا فشل والعياذ بالله . واسأل من شئت فلن تجد أحداً لا يقول لك إن اللغة العربية انحطت ـ أعنى ضعف العلم بها ـ فى هذا الجيل . ولست أعرف لهذا سببا إلا أن التلاميذ لا يتعلمون اللغة وإنما يحفظون نحوا وصرفا وبلايا كثيرة أخرى مثل البلاغة الخ لا تعلمهم اللغة . وإنما تبغضها اليهم ، فاذا كان التبغيض هو الغاية المنشودة فلا شك أن المعلمين قد وفقوا إلى ما لا مزيد عليه . أما إذا كان الغرض هو تعليم اللغة فخير الأساليب هو الأسلوب الطبيعى الذى يتعلم به الطفل الكلام

ابراهيم عبد القادر المازنى